الأستاذ : د. محمد بك

جامعة باجي مختار – عنابة –

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

المستوى : أولى ماستر

المقياس : العلاقات الجزائرية المغاربية والمشرقية

ملاحظة : في هذه المحاضرات يقدم الأستاذ العلاقات الدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي ربطت الجزائر ببلدان المشرق العربي خلال العهد العثماني .

المحاضرة الخامسة

ركب الحج

تعريف ركب الحج : يعرّف ركب اصطلاحا بأنه جماعة الحجاج الذاهبين إلى مكة المكرمة وبالضرورة العائدين منها لاحقا ، أو قافلة الحجاج من راكبي الإبل وغيرها من الدواب ، الذين يحملون معهم زادهم وأمتعتهم ، أو هو مسير قافلة الحج الحجاج أو الحجيج القاصدين بلاد الحرمين الشريفين مكة والمدينة من أجل أداء وإتمام مناسك الحج المقررة والمعهودة . وهناك من يرى بأن الركب يحمل كذلك معنى الموكب المتكون رأسا من مجموعة قوافل الحج المنطلقة من وطن معين ، وكذا المنضمة اليها أثناء السير والتي تقصد في سفرها الوصول إلى مكة المكرمة لأداء الحج .

وبما أن الذهاب إلى بلاد الحجاز لأداء ركن الحج قد يكون غالبا عن طرق البر، وأحيانا تكون بعض مراحله عن طريق السفن الحاملة للركاب والركبان على حد السواء ، فإنه يمكن القول بأن ركب الحج بمعنى أوسع يشمل القوافل التي تقصد بلاد الحجاز برا وكذا الجماعات التي تركب السفن نحو موانئ مصر وخاصة الإسكندرية ، ومنها تواصل سفرها إلى الحجاز برا أو بحرا في بعض الأجزاء ، بما أن المحطة الأخيرة وهي مكة المكرمة ليست ميناء على البحر وهذا النوع يمكن أن نسميه مجازا بالركب البحري.

لقد تعددت الاشتقاقات التي أطلقها المغاربة على هذه الرحلة الجماعية إلى الحجاز لأداء فريضة الحج فهناك من استعمل ركب الحج أو ركب الحاج أو ركب الحجيج وهناك من وظّف مصطلح الركب النبوي لأن الركب يزور المسجد النبوي أيضا ، بينما فضل آخرون استخدام لفظ ركب الحجاز الذي يشمل الحرمين الشريفين المقصودين بحكم أن القافلة متوجهة لبلاد الحجاز.

وركب الحج في العهد العثماني هو الإطار الرسمي أو الحيز المحمي الذي كان يحرص كل من رغب في أداء مناسك الحج على الانتماء إلى قوافله ومصاحبة أفراده لأن المنقطع عن الركب في رحلة الحج الشاقة الطويلة ، والمسافر من الجزائر إلى بلاد الحجاز بمفرده ما وصل اليها قط سالما الا من عصمه الله وصانه ، لذلك فقد أضحى الركب بمثابة المحلة أو الحامية المتنقلة التي تؤمن الحجاج قدر المستطاع ، وتجعل بعض أمراء

البلدان الواقعة في طريقها يرتابون منها فيتجسسون على الركب ويطوفون به ويختبرونه حتى إذا ما أيقنوا أنه ركب حجاج خلوا سبيله.

دلائل تميّز الركب الجزائري وخصوصيته:

لقد تكرر استخدام لفظ الركب الجزائري أو ركب الجزائر في متون الرحلات الحجازية في الكثير من المواضع ، ونقل الحجاج الرحالون أخباره باستمرار طيلة فترة الحكم العثماني للجزائر من ذلك خبر مفاده أن ركب الجزائر في موسم حج 1653م قد أمن في رحلته في القفار ولم يتعرض لقطاع الطرق ، على خلاف ما حدث في المدن التي مر بها، وذكره الرحالة المغربي العياشي في أكثر من موضع وذلك في موسم حج 1661م مثل قوله " وبعد أن خرجنا منها لقينا ركب الجزائر القافلين من الحجاز ..."

تمكن الركب الجزائري من أن يحافظ على شخصيته واستقلاليته طيلة الرحلة إلى الحج وحتى في المقطع الأخير من طرق الحج أي بين مصر والحجاز ، حيث كانت العادة في ذلك الزمان أن يتقدم الركب المصري ويسود أركاب بلاد المغرب كلها التي كانت ترغب معظمها السفر في النهار بخلاف الركب المصري، لكن الأمور انقلبت تدريجيا وأصبح الركب المصري الضخم يحسب للركب الجزائري ألف حساب.حيث كان حريصا على إبراز مدى هيبته وقوته حماية للحجاج الجزائريين ، وترهيبا للمعتدين ونكاية في أركاب الحج الأخرى المزاحمة له . ورغم وجود شيخ أو وكيل للحجاج المغاربة أجمعين في الحجاز خلال العهد العثماني الا أن الجزائريين كان لهم ممثل خاص هو رئيس طائفة الجزائريين ، وجرت العادة أن في آخر مقطع من مقاطع السفر المسمى درب الحجاز ينطلق الركب المصري ثم تنضم اليه أركاب المغرب فاس تونس الجزائر طرابلس فتتضاعف أعدادهم ويؤلفون ركبا مغاربيا كبيرا لكن كان بالإمكان دائما تمييز بعضها عن بعض سواء في الانطلاق أو أثناء السير.

إن تميّز الركب الجزائري لا يعني أبدا أنه لا يحمل سوى الجزائريين أو أنه يرفض المسير جنبا إلى جنب مع الأركاب المغاربية ، فقد انضم بعض الحجاج من إقليم برقة الليبي وثلاثة حجاج مغربيين إلى الركب الجزائري في أحد المواسم ، في حين التقى بعض الحجاج الجزائريين بركب فزان الليبي في مصر وتعرفوا على حاكم فزان فرحب بهم وآثروا مواصلة السفر معا إلى الحجاز ، وذكر العياشي خبر عالم من المغرب الأقصى :" ولقيت صاحبنا سيدي سحراوي وكان حج معنا ثم قدم قبلنا مع ركب أهل الجزائر..." . كما أن التقاء أركاب المغرب العربي في طريق الحج أمر وارد إذ حدث وأن التقت خمسة أو ستة أركاب دفعة واحدة في مدينة طرابلس الليبية في الذهاب والإياب ، وإن المرحلة الأخيرة بين مصر والحجار يظهر بين أركاب المغاربة عادة التواد والتشاور والاتفاق في أمور كثيرة .

أجزاء الركب الجزائري البري اقليميا:

رغب أن الركب الجزائري يشكل وحدة مترابطة قائمة بذاتها ، إلا أنه في أصله تجمع وتكتل مجموعة من قوافل الحجاج الجزائريين ، من مختلف جهات الايالة الجزائرية ، ويمكن اعتبار تلك القوافل بمثابة أركاب جزئية أو إقليمية وأسمائها تبقى على المستوى المحلي فقط ، كانت تلك الأركاب تنطلق من حواضر الجزائر المعروفة مثل بجاية ، قسنطينة ، الزاب ، الجزائر ، مجاجة ، مازونة ، ونشريس ، تلمسان ، معسكر، توات ، ورجلان

.. وذلك لتسهيل تجميع حجاج الركب وتحفيز الجزائريين على الذهاب إلى حيثما كانوا. أقام الجزائريون على فترات مجموعة من الزوايا والمحطات يجتمع فيها الحجاج بالتدريج الى أن يحين وقت مرور الركب المعتاد فيلتحقون به من كل الجهات المجاورة.

يقول الرحالة الورتلاني عن إحدى تلك المحطات :" وبتنا فيها ثلاث ليال ، ليلحق بنا من بقي من التالي... فمثلا قد اجتمع في ركب جزائري واحد في أحد المواسم حجاج من المناطق والقبائل التالية : قسنطينة ، سطيف ، بجاية ، زواوة ، قصر الطير ، أهل عامر ، أولاد عبد النور ، أولاد سعيد بن سلامة ، أهل بسكرة ، أهل المسيلة ، أهل أمدوكال ، أهل الزاب ، أهل الصحراء ، توات...

وبالتالي فإن تجزئة الركب الجزائري إقليميا إن بدت فإنما تكون في الانطلاق لأجل التشكل ثم يتوحد الركب في محطات الطريق الخارجية ثم تظهر التجزئة مرة أخرى على مشارف الوصول إلى الجزائر في العودة لضرورة الفراق ، فمثلا في موسم حج 1766م ضم الركب عدة إقليم وقبائل لكنه رحل موحدا ثم عاد موحدا وفي الايالة التونسية انقسم إلى ركبين: ركب التل الذي رغب في المرور على مدينة تونس ودخول الجزائر من شرقها وركب الهضاب والصحراء الذي رغب في المرور على مدينة توزر قاعدة يلاد الجريد ودخول الجزائر من جهة الجنوب الشرقي.

ركب الحج البحري: ويقصد به جماعات الحجاج التي تسافر عبر البحر ممتطية السفن الشراعية ذائعة الصيت وقتئذ ، على أن الركب البحري لا يمكن قطع صلته بالركب البري فرحلة الحج من الجزائر قد تبدأ برا ثم تؤول إلى البحر والعكس صحيح. وعندما تكون السفن جاهزة للإبحار نحو ميناء الإسكندرية ينادي المنادي في مدينة الجزائر معلنا ميعاد إقلاعها فينتهز كل من نوى الحج في ذلك العام الفرصة بسعادة للسفر بحرا . وكانت الجزائر تلجأ عادة إلى كراء السفن الأوروبية ذات الأحجام الكبيرة التي تصلح لنقل الحجاج الجزائريين فمثلا في سنة 1685 تم استئجار سفينة هولندية لحمل الحجاج من العامة والمسؤولين الأتراك ، وكان الحجاج أيضا يقصدون ميناء حلق الوادي بتونس للسفر بحرا.

دور ركب الحج الجزائري في التواصل الثقافي:

المزاوجة بين الحج والنشاط العلمي: مثلت الرحلة لطلب العلم في ذلك الزمان أحد البدائل التي أوجدها الجزائريون لتعويض تقصير الحكام العثمانيين الثقافي ، فأضحت بذلك مفخرة لصاحبها لذا حرص الجزائريون على إقرانها برحلة الحج ، ولا تكاد تطلع على تراجم وسير الأعلام من الجزائريين في ذلك الزمان إلا قابلتك العبارات مثل :"رحل إلى المشرق وحج" أو "أخذ عن علماء مصر والشام والحرمين" أو" أخذ عنه جماعة من علماء المغرب والمشرق" .

في الديار المصرية كان الحجاج يقصدون مواطن العلم والتدريس ويزاحمون طلبتها والطلبة الوافدين عليها من مختلف البلدان بالركب، أما بلاد الحرمين الشريفين فكانت معاهد مفتوحة أمام الحجاج تفد عليها اكتب والمؤلفات وتتبادل فيها الرسائل والإجازات ، وما يحيط بركب الحج من نشاط علمي يشمل رحلة الإياب كما الذهاب والبلدات الصغيرة كما المدن الكبيرة يقول الرحالة الورتلاني عن ذلك :" ...وفي الرجعة اجتمعنا بهذه

البلدة مع علماء الوقت كالفقيه الأديب سيدي سالم وإخوانه وطلبته ، وقد عمّر أوقاته بتدريس العلم نحوا وفقها ".

لا تكاد تخلو معظم مواسم سفر الركب الجزائري إلى الحج من نماذج لحجاج جزائريين أعلام اشتهروا بنبوغهم وفرضوا أنفسهم ومكانتهم في أقاليم المشرق الإسلامي نذكر منهم: علي ولي بن حمزة الجزائري ، أحمد المقري التلمساني ، عيسى الثعالبي ، يحي الشاوي ، عبد العزيز التواتي ، عبد الرحمن الجنتوري ، محمد المنور التلمساني ، محمد البليدي ، عبد الرحمن التنلاني ، الحسين الورثلاني ، أبو العباس الصحراوي ، أحمد بن عمار، أبوراس الناصري، علي الميلي المغربي ...

.....

المحاضرة السادسة

العلاقات الثقافية الجزائرية والمشرقية

إن العلاقات الدينية والثقافية بين الجزائر والمشرق قديمة ووطيدة ودائمة نتيجة لوجود العتبات المقدسة والمؤسسات الثقافية الفاعلة ، وكان للنخبة المثقفة الجزائرية علماء وطلبة علم دور كبير ومؤثر في ازدهار الحياة الثقافية في المشرق الإسلامي.

علماء الجزائر في المشرق :

علي ولي بن حمزة الجزائري : المعروف بالنسّاب توفي أواخر القرن 16م ، وهو عالم نابغة في علم الرياضيات ، وقد درس في مدينة اسطنبول بفضل إتقانه اللغتين العربية والتركية ، ثم عاد إلى الجزائر ومنها توجه إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وفي مكة كان ابن ولي يعلم الحجاج علم الفرائض والحساب ألف فيها كتابه الرائد في الحساب الموسوم " تحفة الأعداد لذوي الرشد والسداد".

أحمد المقري التلمساني : توفي في 1631م ويعد من أشهر أعلام الجزائر وحفاظها جال المغرب أولا ثم المشرق للحج والمجاورة ، حج المقري خمس مرات وكان كثير التردد خلالها على الشام ومصر فأقام علاقات مع علمائهما كرستها الإجازات والمكاتبات الشعرية والنثرية الوفيرة بينه وبينهم ، وفي المشرق عاش المقري حياة حافلة بالنشاط العقلي وألّف معظم كتبه هناك منها: موسوعته نفح الطيب وفتح المتعال وأزهار الكمامة وإضاءة الدجنة ، وأظهر حفظه الواسع وموهبته الأدبية فوجد تقديرا كبيرا من علماء الشام وغيرهم.وكان من ضمن الذين أجازهم العلامة المقري الشيخ شهاب الدين المصري أحد أجلاء علماء مصر في زمنه والشيخ حنيف الدين بن مرشد مفتي الحنفية بالديار الحجازية والشيخ تاج الدين بن ابراهيم المالكي المكي الخطيب والمدرس بالمسجد الحرام.

عيسى الثعالبي : المتوفي في 1669م وهو أبومهدي عيسى الجعفري الثعالبي الجزائري من أكبر فقهاء المالكية في عصره أصله من نواحي وادي يسر وطن قبيلة الثعالبة درس بالجزائر ثم ارتحل الى تونس ومنها إلى المشرق والحج والمجاورة حتى وفاته ، استقر الثعالبي في مكة المكرمة زمنا طويلا وألف فيها فهرسته كنز الرواة المجموع في درر المجاز ويواقيت المسموع ، وكان يتردد على المدينة من وقت لآخر ويقرئ في

الحرم النبوي حيث مجلسه حافل غاص بأهل العلم ، كما امتلك الثعالبي خزانة هامة للكتب النادرة بمكة المكرمة جعلت بيه مقصدا للطلبة والعلماء .

يحي الشاوي: توفي في 1682م وهو يحي بن محمد بن عيسى بن أبي البركات المليانى الشهير بالشاوي يضرب به المثل في ملازمة الشيوخ وتحصيل العلم ، ورحل مع ركب الحج الجزائري ولما قضى حجه رجع إلى القاهرة مواظبا على التعلم والتعليم واجتمع به فضلاؤها وأخذوا عنه وترقت به الحال فتصدر للإقراء بالأزهر وتولى قضاء المالكية بمصر، وكانت له سفريات الى اسطنبول حاضرة الخلافة وهناك اجتمع عليه الوزراء للتقرب منه والعلماء للبحث والإجازة ، وألف الشيخ الشاوي كتابا في النحو جعله باسم السلطان العثماني محمود الأول أتى فيه بكل غريبة.

عبد العزيز التواتي: توفي أواخر القرن 17م وهو عبد العزيز بن حسن بن عيسى القوراري التواتي من علماء ركب الحج الجزائري المغمورين جال بلاد المغرب وقرأ على كثير من علمائها ثم رحل الى المشرق سنة 1631م ودخل القاهرة ومنحه مقرئها الشيخ سلطان الإجازة لإتقانه علم القراءات وهو من العلماء الذين أغفل مؤرخو الحجاز ذكرهم على الرغم من أنه كان يعد من النابغين في علم القراءات في زمن إقامته بالحجاز.

انتقل الشيخ بعد الحج إلى الطائف ولقيه فيها الرحالة العياشي الذي نزل بداره فيها ووصفه برئيس المقرئين وأستاذ المجودين.

عبد الرحمن الجنتوري : توفي في 1747م وهو أبو زيد عبد الرحمن الجنتوري التواتي من أجلّ علماء في توات التقى أثناء رحلته لأداء الحج بعلماء كثيرين أفادهم واستفاد منهم .

محمد المنور التلمساني : توفي في 1760م وهو محمد بن عبد الله بن أيوب من علماء الحديث الجزائريين ، أخذ عنه مرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس عندما التقى به بمناسبة سفره للحج ، كانت له شهرة لا تضاهى في الأزهر الشريف لقدرته على الجمع بين علوم شتى ، فاجتمع عليه خلق كثير من مصر وبلاد أخرى ، اشتهر بمناظراته العلمية.

محمد البليدي : توفي في 1763م وهو محمد بن محمد الشريف البليدي أحد أعيان المالكية بالجامع الأزهر الشريف العامر، ممن استقروا بالمشرق بعد أدائهم الحج عدّه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي من أشيخ الوقت في مصر في القرن 18م مضاهيا بذلك شيوخها الملوي ، الجوهري ، الحفني ، الصعيدي وغيرهم ، ألف الشيخ البليدي في التفسير والقراءات والمنطق وتتلمذ على يديه كثيرون منهم العلامة مرتضى الزبيدي.

عبد الرحمن التنلاني : المتوفى في 1775م وهوأبو زيد عبد الرحمن بن عمر التنلاني التواتي من أكثر شيوخ منطقة توات تأليفا ، ذاع صيته في مصر بعد دخوله إليها في رحلة عودة الركب الجزائري ، رغم أنه لم يستقر فيها زمنا طويلا وتوفي بعدها بزمن قليل.

الحسين الورثلاني: المتوفى في 1779م وهو الحسين بن محمد السعيد بن الحسين صاحب الأسفار والرحلات إلى الحجاز لأداء الحج في ثلاثة مواسم متفرقة من ثلاثة عقود متتالية ، ومن العلماء البارزين الذين التقى بهم أثناء حجه مفتي بلاد الهند الشيخ المحقق محمد أكرم بن الشيخ عبد الرحمن ، وقد اجتمع بطلبة الأزهر مرارا وأعجب بدروسه الشيخ علي الصعيدي.

أبو العباس الصحراوي : توفي في 1788م وهو أبو العباس أحمد الجزائري المعروف في المشرق بأبي العباس المغربي ، وأصله من صحراء الجزائر ذكر الجبرتي:" ... جاور بالحرمين سنة واجتمع بالشيخ أبي الحسن السندي ولازمه في دروسه وباحثه " ثم راج أمره بعد قفوله من الحج لفصاحته وقوة حفظه. أحمد بن عمار: توفي في 1791م وهو أبو العباس أحمد بن عمار مفتي المالكية في الجزائر في عصره من المبدعين القلائل الذين جمعوا بين الفقه والأدب ، وتنقل إلى المشرق عدة مرات فجاور بالحرمين وأقام بمصر وأجاز طلبة كثيرين أشهرهم مفتي الشام في وقته الشيخ المرادي ، وتوفي بالحرمين.

أبوراس الناصري : توفي في 1823م وهو الحافظ أبوراس محمد بن أحمد بن أحمد الناصري المعسكري الراشدي ، وكانت بداية اشتهار أمره من جامع الزيتونة في تونس، لقي جل علماء الحجاز ومصر في رحلتيه إلى الحج وتبادل معهم الإجازات والتقاريظ إنتاجه العلمي وفير بلغ 140 مصنفا في مختلف العلوم.

علي الميلي المغربي : توفي في 1832م وهو الشيخ علي بن محمد الميلي الجزائري المالكي سافر الى الحجاز ثم الى مصر وأضحى من علمائها المحققين ينزل عندهم الأعلام من الحجاج الجزائريين ، استقر بمصر وصار له فيها شأن.

ومن أعلام الركب الجزائري كذلك الذين أشاعت رحلتهم للحج عطاءهم العلمي في بلاد المشرق قاطبة نذكر الأسماء التالية : عبد الرحيم العصنوني التواتي الذي حج في القرن 16م وزار مصر والتقى بكبار علمائها قبل أن يرجع الى بلده. أحمد مقداد البسكري فقيه من بلاد الزاب بقي في مصر لفترة طويلة بعد حجه كان لا يتخلف عن مجالس شيوخ مصر ويجالسهم ويدارسهم. سليمان القشي النقاوسي رحل إلى مصر بقصد الحجاز ، فأقام بها مدة واشتغل بالاقراء مخالطا شيوخها ثم عاد الى الجزائر لاحقا. أبو حسن علي بن ناجي من بلاد الزاب من عائلة ابن ناجي الشهيرة كانت له شهرة ومكانة في المشرق .عبد اللطيف التلمساني المسن الفاضل الذي نزل بمصر بعد الحج بالزاوية الناصرية . أحمد التليلي من شرق الجزائر له يد في العلوم كلها وبصفة خاصة التاريخ والسير. عبد القادر بن السنوسي بن دحو كان عالما عاملا له لكل علم وصول من حديث وفقه ونحو وأصول ، رجل للحج وطلب العلم فطار صيته بمصر حتى صار من نخبة أهل العصر. مصطفى بن المختار الغريسي توفي في رحلة العودة من الحج ببرقة . ويمكن أن نضيف الى أولئك الأعلام المذكورين العشرات من الشيوخ والقضاة والعلماء المتقلدين مهام إمارة ركب الحج.

مجاورة المؤسسات الثقافية والدينية في المشرق:

1- مجاورة جامع الأزهر:

كان الحجاج الجزائريون لا يعدلون بقرب الأزهر مكانا حيث كانوا يقومون كراء الدور والغرف القريبة من الجامع لملاقاة المشايخ ومزاحمة هل المجالس ، فبمجرد وصول الركب إلى القاهرة يطرح الحجاج أمتعتهم بالوكالات المخصصة لذلك مثل وكالتي قايت باي وبولاق ثم يسرعون إلى البحث عن منازل قريبة من الأزهر للكراء ، وفي حالة ما إذا تعذر على الحجاج الجزائريين إيجاد منازل قريبة من الجامع الأزهر ، فإنهم كانوا يحضرون إلى الجامع يوميا ولا يعودون إلى الفنادق محل نزولهم في منطقة بولاق سوى لتحصيل الطعام والشراب ثم يؤوبون إلى الأزهر لتحصيل العلوم والإجازات.

وبما أن مقصد الحجاج الجزائريين في الجامع الأزهر هو رواق المغاربة فلقد أصبح هذا الرواق أوفر عددا وأكثر حركية مقارنة ببقية الأروقة وذلك بسبب توافد الحجاج عليه بأعداد كبيرة ، ويعد أكبر وأقدم رواق في الجامع الأزهر . وطلبة رواق المغاربة فهم تحت رئاسة شيخ الرواق أو وكيله وبدوره تحت رئاسة شيخ المالكية وشيخ المالكية تحت رئاسة شيخ الجامع الأزهر مباشرة. ويعرف وكيل رواق المغاربة باسم النقيب ويتم انتخابه من بين العلماء المغاربة المجاورين به وتحفظ كتب التاريخ أسماء بعض هؤلاء النقباء أو الوكلاء فمنهم الشيخ أبو الحسن الجزائري ، الذي استقبل بعض الحجاج الجزائريين عام 1766م وأعارهم كتاب شرح الشيخ الحطاب على مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي.

ويجذب الأعلام من الحجاج الجزائريين الى رواق المغاربة وجود مكتبة ضخمة من المصنفات الفقهية والأدبية والتاريخية وغيرها بالإضافة الى باعة الكتب المتجولين على غرار أحدهم المشتهر بالدمشقي دلال الكتب، كما كان الحجاج الجزائريون يستأنسون بوجود شيوخ صالحين لهم مكانة في مصر من أمثال الشيخ المتصوف عبد الرحمن البجائي الخلّادي الملقب بأقطال. من أشهر الأعلام الجزائريين الذين تبوءوا مكانة مرموقة في الأزهر الشريف العالم محمد الأمير المازوني المتوفى في 1817م الذي استقر أسلافه في مصر، فنشأ واشتهر فيها وتمكن من نيل أهم منصب علمي وهو منصب مشيخة السادة المالكية ، وطار صيته في المغرب والشام والعراق.

لقد كان بعض مريدي العلوم من الحجاج ينفصلون عن ركب الحج ، مفضلين مجاورة جامع الأزهر نذكر منهم الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشتولي الجرجري مؤسس الطريقة الرحمانية بقي بجواره ثلاثين سنة ، درس خلالها مبادئ الطريقة الخلوتية ، والشيخ علي بن محمد الجزايرلي المعروف بابن الترجمان. وبفضل أركاب الحج المتتالي ورودها على مصر من موسم لآخر تزايد عدد المجاورين بالجامع الأزهر من الطلبة والمشايخ الجزائريين وساهمت كثرة الأوقاف على رواق المغاربة في تيسير أعباء بقائهم في مصر وكان للأثرياء الجزائريين المستقرين في مصر دور في وقف الأملاك على رواق المغاربة وطلبة العلم منهم الحاج شعلان التلمساني.

2- مجاورة الحرمين الشريفين:

ومن أوائل الأعلام المجاورين الشيخ طاهر بن زيان الزواوي الجزائري توفي في 1543م حج ونزل بالمدينة المنورة حيث اشتهر وألف كتابه نزهة المريد في معاني كلمة التوحيد، أما أحمد المقري التلمساني فقد ألف كتبه في السيرة وهو في الحرمين الشريفين ، ومن العلماء في القرن 17م نذكر أبومهدي عيسى الجعفري الثعالبي الجزائري ، الشيخ محمد الفقيه الزواوي ، والحاج علي العنابي ، والشيخ خالد الجعفري المالكي الذي تصدر الإفادة والإقراء ، والشيخ عاشور القسنطيني ، والشيخ إبراهيم بن جلاب الريغي ، والحاج عبد الرحمن الغريسي الجزائري ، وخلال القرن 18م تضاعف نشاط المجاورة ليشمل علماء جزائريين آخرين منهم محمد العنابي فقد كان عالما فاضلا حج وجاور مكة سنة ومات بها في 1728م ، والشيخ محمد بن أحمد الشريف الجزائري توفي بمكة في 1746م ، والقاضي محمد بن عبد الرحمن التلمساني الذي ودع وطنه واستقر في مكة حتى وافته المنية. أما طلبة العلم الفقراء منهم فقد انتفعوا من حلقات الإقراء التي كان أثرياء

مكة يقيمونها في رمضان ومن الزوايا التي أنشأها بعض السلاطين العثمانيين في المدينة المنورة. وكان علماء الجزائر ينطلقون من الحرمين إلى بلاد إسلامية أخرى مثل الشام والعراق لتحقيق أغراض مختلفة.

لقد انعكس التوجه الفكري السائد بالجزائر وغيرها من الأمصار الإسلامية في ذلك العهد على مبتغى الحجاج الجزائريين في إطار رحلتهم المشرقية المقدسة ، فالتأليف أو العلوم التي كان يبتغيها الحجاج ويحرصون على نيل الإجازة فيها لم تكن تخرج عن نطاق فنون الفقه والأصول العقائد والتفسير والقراءات والتاريخ والبيان والحديث والكلام ... وما شابهها من علوم الوقت التي فرضت نفسها فرضا. وبما أن مدينة القاهرة أهم محطات الركب الجزائري ذهابا وإيابا ، فقد كان أعلام الفكر من الحجاج يقصدون علماءها البارزين فيقرؤون عليهم ويطلبون منهم الإجازة ، ومن تلك الأسماء اللامعة المقصودة الشيخ مرتضى الزبيدي الذي توفي في 1790م علم اللغة والنحو والحديث بمصر. وتأتي رواية الحديث في مقدمة الفنون التي كان العلماء الجزائريون يشدون الرحال نحو المشرق من أجل الإجازات فيها وقد أقرّ ابن أبي محلي السجلماسي الساوري بذلك. وتكون إجازات علماء المشرق لمن يطلبها من الطلبة والعلماء مكتوبة بخط يد المجيز رأسا ، وقد يكتفي العالم المجير بأن يأمر أحد تلامذته بكتابتها إملاء لسبب من الأسباب غير أنه في الأخير يختمها هو بخط يده ويطبع بخط يده عليها بطابعه. وفضلا عن الإجازات المخطوطة كان الأعلام من الحجاج الجزائريين يرجعون من رحلتهم ببعض المصنفات في علوم شتّى مثل فتوح البلدان للبلاذري .

وإذا أردنا المفاضلة والمقارنة بين واقع الثقافة في المغرب والمشرق من منظور علماءنا يرى البعض يرى البعض بأن أهل المغرب يفضلون أهل المشرق في تلك الأزمنة بأمرين هما أنهم لا يعرفون تلك الصراعات المذهبية الحادة المنتشرة بالمشرق ، وكذلك أن المناصب الدينية مثل القضاء والفتوى والتدريس والإمامة والخطابة والشهادة لا تباع ولا تشترى بينهم كعادة أهل المشرق. لكن ممارسة الدجل والشعوذة وغيرها من السلوكيات الدنيئة من طرف بعض أهل المغرب جعلت نظرة أهل المشرق للمغاربة عامة تشوبها الحذر والاحتقار. وقد أقر المغاربة بسبق أهل المشرق في بعض الأمور وتمنوا مجاراتهم فيها ، منها الاعتناء بالمساجد وتعظيمها وتزيينها على خلاف أهل المغرب ، كذلك تكريهم للعلماء في حياتهم وبعد وفاتهم .

تأثير الطرق الصوفية :

إن الحجاج والمتصوفة كانوا يغتنمون فرصة دخول القاهرة لزيارة الصالحين فيها الأحياء منهم والميتين وقد عد الرحالة العامري التلمساني أشهرهم فمنهم : الحسان والعارف والشعراني والصحابي وسارية والإمام الشافعي وابن قاسم وأشهب وأصبغ والست نفيسة وابن عطاء الله وأبي جمة والشاطبي وخليل والمنوفي ...، وكان الحجاج الجزائريون يتلقون من أعلام التصوف الذين يقصدونهم في المشرق الأذكار والإجازات ، ويجددون عليهم العهد في الطرق الصوفية المتباينة كل حسب مراده . وبسبب ذلك السياق الصوفي الطاغي امتلأت بلاد الحرمين الشريفين بالمزارات من أضرحة وقباب الأولياء الصالحين القدامى والمحدثين ، الذين أضحى العامة والغوغاء من الناس يغالون في تقديسهم وتنزيههم ، وقد نقل الرحالة الورثلاني مثلا عن أحدهم يدعى سيدي عمر العرابي، ولاحظ بأن غالب السائلين بمكة المكرمة والمستصرخين إنما يهتفون باسمه .

والملاحظ أن كثير من الطرق الصوفية التي وفدت الى الجزائر كان لها وجود وأصل في المشرق العربي مثل القادرية والخلوتية وأثرها على الطرق الصوفية التي نشأت في الجزائر كبيرا وعميقا مثل الطريقة الرحمانية والطريقة التيجانية، كما أن طرق صوفية أخرى كان مؤسسيها وزواياها الأولى في المغرب العربي ثم شهدت انتشارا في بلدان المشرق العربي مثل الطريقة الشاذلية والطريقة السنوسية وغيرها من الطرق الصوفية .

.....

المحاضرة السابعة

العلاقات الاجتماعية الجزائرية المشرقية

ملاحظة : أتناول في هذه المحاضرة العلاقات الاجتماعية بين الجزائر ومصر، ولتنبيه كلمة مغربي تعني الجالية المغاربية بصفة عامة .

مناطق انتشار القبائل المغربية في ريف مصر:

نتيجة لعوامل الطرد والجذب جاءت بعض القبائل المغربية ، سواء أكانت من أصول بربرية أم من أصول عربية إلى مصر في فترات مختلفة سابقة للعصر العثماني ، وقد استمر مجيء القبائل المغربية في العصر العثماني كذلك ، وأتيحت لهذه القبائل فرصة الاستقرار في مناطق الريف المصري ، بينما آثر بعض هذه القبائل حياة التجوال والترحال بين أرجاء هذا الريف وقراه وعلى أطرافه.

– **القبائل المستقرة :** إن منطقة الشمال الغربي من الدلتا ، وبخاصة منطقة البحيرة كانت المنطقة الأولى لاستقرار الموجة الأولى من القبائل المغربية التي وفدت إلى مصر ، وهذا أمر طبيعي يتوافق ومنطق الأحداث حيث أن هذه المنطقة أقرب المناطق المصرية الى بلاد المغرب والمعبر الرئيسي بين مصر وبلدان المغرب العربي ، ولذا فإن قبائل مزانة وزناتة والهوارة ودنانة وبني يزان والرماحنة اتخذت من منطقة البحيرة والمناطق الممتدة غربي الإسكندرية وعلى أطرافها مستقرا لها في بادئ الأمر، ثم حدث تحرك بعض فروعها الى مناطق الدلتا الأخرى أو إلى الصعيد.إن القبائل المغربية التي وفدت إلى مصر في العصر العثماني مثل قبائل أبو كريم ، محارب ، ابن وافى ، ترهونة ، المغاربة ، أولاد علي آثرت الاستقرار في جوار القبائل التي سبقتها فاستقرت في معظم قرى البحيرة .

كما أن بعض القبائل انتشرت في مناطق أخرى حيث نجد قبائل سليم متواجدة في المنطقة الممتدة من الإسكندرية الى برقة غربا بينما انتشرت قبائل بني وهيب في المنطقة الممتدة من الإسكندرية إلى العقبة شرقا ، هذا إلى جانب وجود فروع لهذه القبائل في قرى الغربية ، والدقهلية ، والشرقية والقليوبية والمنوفية . كما أننا نجد انتشار فروع القبائل المغربية مثل الهوارة والعبابدة والهنادي وسليم وبني هلال في جميع مناطق الصعيد من أسوان حتى مشارف القاهرة .

– **القبائل المتجولة :** إن هذه القبائل الرعوية أو المتجولة قد اتخذت من معظم الأراضي المصرية مرتعا لها ، فهم لا يعترفون بحياة الاستقرار ولا يرغبون في امتلاك الأراضي ولا يدفعون ضرائب ، وهؤلاء العربان يؤثرون تغيير مناطق إقامتهم إذا ما بدت لهم منطقة أخرى أكثر تحقيقا لبغيتهم ، وأكثر مواتاة لمشروعاتهم القائمة على السلب والنهب والاغتصاب بالقوة ، وهم دائما على أهبة الاستعداد للهروب إلى مشارف الصحراء أو

التوغل في أعماقها . وأشهر هؤلاء العربان المتجولون هم الذين ينتمون إلى قبائل أولاد علي ، ترهونة ، زناتة ، محارب ، كرايم وغيرهم وكانت مناطق تجولهم غير محددة ، بل إنها تشمل معظم أطراف الريف المصري.

المغاربة في مدن مصر:

إن استقرار أبناء المغرب في المدن المصرية المختلفة وبخاصة القاهرة والإسكندرية وتشكيلهم جالية لها كيانها في هذه المدن سابق على دخول العثمانيين مصر بفترة طويلة، وكانت تكّون ثقلا له وزنه ساعة دخول السلطان سليم الأول القاهرة . إن حجم هذه الجالية أخذ يزداد بصورة واضحة منذ بداية القرن 16م، وتسجل المصادر معلومات كافية عن التنظيمات المغربية في أهم الأحياء الحضرية في القاهرة مثل بولاق القاهرة ، مصر القديمة ، قناطر السباع ، الغورية ، الأزهر ، الحمزاوي ، الكعكيين ، البندقيين ، الأشرفية ، النحاسين ، المغربلين ، قوصون ، الجملون ، باب الشعرية ، باب النصر ، باب الحديد ، باب الخرق .

ونتيجة للنشاطات المتعددة التي مارسها أفراد الجالية المغربية في داخل القاهرة ، وامتداد تنظيماتهم إلى كل خطط هذه المدينة أصبحت كثير من الأحياء والشوارع تحمل أسماء مغربية ، أما عن الهيكل التنظيمي للجاليات المغربية داخل المدينة فإنه كان قائما على أساس طائفي ، فكل طائفة كانت تشتغل بعمل واحد تجارة أو حرفة ، ويختارون شيخا لهم متحدث باسمهم ومدافع عن حقوقهم أمام السلطات الحاكمة . وقد أصبحت تنظيمات الجالية المغربية قوة لا يستهان بها ولها دورها في توجيه سياسة النظام الإداري في المدينة ، ويرجع هذا إلى الثراء الضخم الذي أصبح عليه كثير من أفراد هذه الجالية وبخاصة فئة التجار وانتماء كثير من أفرادها انتماء عضويا إلى أوجاقات الحامية العثمانية للتمتع بامتيازاتها المادية والأدبية . ولم يكن الدور الذي لعبته الجالية المغربية في بنية مدينة الإسكندرية الذي يعتبر الثغر المصري الأول على البحر المتوسط ومدن الثغور الأخرى مثل رشيد ودمياط والسويس والقصير ، وكذلك في المدن الداخلية مثل المنصورة وقيلوب ومنوف والمنيا وأسيوط وجرجا بأقل أهمية من دورها الذي كان لها في مدينة القاهرة .

الجزائريون والحياة الاجتماعية في المدينة:

إن اشتغال أبناء الجالية الجزائرية الذين استقروا في المدن المصرية بالعمل التجاري والحرف المهنية الصناعية وحرف الخدمات وطلب العلم والاشتغال بالتدريس جعلهم على علاقة واسعة وقوية بمختلف طوائف المجتمع المصري آنذاك ، ويمكن أن نرصد حالات الاندماج الاجتماعي بين الجزائريين والمجتمع المصري في النواحي التالية :

1 – التزواج والتصاهر: لقد أثبتت المصادر أن أبناء الجالية الجزائرية لم يكونوا منغلقين اجتماعيا فبجانب علاقة أبناء الجالية القوية فيما بينهم ، فإنهم اندمجوا اجتماعيا مع فئات المجتمع المصري ، وأصبحت ظاهرة التزاوج من مصريات وشاميات منتشرة وبصورة واسعة ، وكذلك تزويج بناتهم لمصريين وشاميين أصبحت شيئا عاديا ، فمثلا نجد السيد علي بن الشريف أحمد بن محمد بن سعيد المغربي البجاوي يتزوج بالحرمة زكية بنت عثمان عبد الله المصرية ، ونجد أن الحرمة عائشة المرأة بنت السيد محمد المغربي الجزيري تتزوج من عمر بن رمضان ديب المصري.ونتيجة للرفاه الاقتصادي الذي تمتع به بعض الجزائريين فإنهم اشتروا

الجواري وأعتقوهن وتزوجوا بهن سواء أكانوا جواري بيضا أو سودا ، وبما أن الجزائريين عاشوا في معظم أحياء المدن المصرية ينتج عنه أن عملية التأثر والتأثير في العادات والتقاليد والأعراف بين هذه الأسر المتصاهرة كانت واسعة وعميقة . ومن الملاحظ أيضا أن بعض الأسر الغنية أبقت المصاهرة داخل نطاقها وبقي ذلك تقليدا لفترات طويلة . كذلك تم التزواج بين كثير من طلبة العلم والعلماء الجزائريين ومصريات بخاصة أولائك الذين استقروا بمصر واتخذوها وطنا ثانيا لهم ، فأحمد المقري بعد أن استقر به المقام في مصر 1619م تزوج بمصرية .

2- الاشتغال بالحرف المهنية والخدمات وأثره في انتشار العادات والتقاليد الجزائرية :

لقد اشتغلت الجالية الجزائرية بالحرف المهنية والصناعية وحرف الخدمات في معظم أحياء المدن المصرية التي عاشوا فيها ، وكانت هذه الحرف التي تمس حياة المجتمع بصورة واضحة مثل الطحانة والقصابة والقبانة والسمسرة والصيرفة والدولبة وعصر الزيوت وصناعة المنسوجات وغير ذلك من الحرف التي تحتاج دائما إلى الاحتكاك المستمر بين أفراد المجتمع والتعامل فيما بينهم وهذا ما حدث مع أبناء الجالية الجزائرية المشتغلين بهذه الحرف ، فقد توطدت علاقاتهم بفئات المجتمع المصري وتعاملوا معها بيعا وشراء وتأدية خدمات ، وأصبحت حوانيتهم ووكالتهم تتعامل مع أبناء المجتمع المصري ، وعن طريق هذه المعاملات أثروا في هذا المجتمع كما تأثروا به ، وانتشرت العادات والتقاليد الجزائرية نتيجة لهذا الاختلاط بصورة واضحة في مجتمع المدينة المصرية حتى انتشار الزي الجزائري أصبح شائعا بين كثير من فئات الشعب المصري ، وكذلك انتشرت الأطعمة الجزائرية في أحياء المدن المصرية ، وبصفة خاصة في مدينتي القاهرة والاسكندرية ، كما أن قطاعا كبيرا وبخاصة في مجتمع الاسكندرية تأثروا الى درجة كبيرة باللهجة الجزائرية التي لا تزال تأثيراتها واضحة حتى يومنا هذا ، وقد كانت عمليات التزواج التي سبقت لنا معالجتها أكثر ما تكون بين قطاع هؤلاء الحرفيين نتيجة لارتباطهم الشديد بغالبية المجتمع .

وليس هذا فقط بل إن تأثيرات المشتغلين بهذه الحرف نظرا لانتشارهم الواسع امتدت لتشمل قطاعات أخرى خارج مجتمع المدينة ، فامتدت الى المناطق المحيطة بهذه المدن ، وقد ظهر ذلك واضحا في الدلتا حيث انتشر كثير من أبناء الجزائر في معظم مدن الدلتا حيث تركوا تأثيراتهم الذي شمل أيضا أبناء الجاليات الأخرى التي كانت تعيش في المجتمع المصري ، مثل الشوام والسودانيين . ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا التأثير كان متبادلا فكما أثّر أبناء هذه الفئة في تلك النواحي ، تأثروا هم في بعض جوانبها بالعادات والتقاليد والأعراف المصرية وغيرها من الطوائف الأخرى ، وفي كثير من الأحيان نقلوها إلى بلادهم .

3 – فئة التجار ودورها في التأثير الاجتماعي :

لقد أصبحت فئة التجار تلعب دورا ضخما في الحياة الاقتصادية المصرية ، وتعددت مجالات استثماراتها لرؤوس أموالها ، وتشابكت مصالحها مع مصالح الطبقات العليا في المجتمع المصري وبخاصة مع الأمراء المماليك ورجال الإدارة وباشوات مصر وعلمائها ، وتفيض المصادر في تضخيم دور هؤلاء التجار والمكانة الاجتماعية التي أصبحوا فيها حتى كونوا فئة ذات تمايز اجتماعي واضح وبخاصة أولئك الذين ينتمون إلى أسر مغاربية مثل الشرايبي والمحروقي وحدق والكهن والسقاط ، وينعت أفراد هذه الأسر بألقاب وصفات مثل "

عين أعيان الكرام " : فخر التجار المكرمين " تدل على علو المكانة الاجتماعية التي حصلوا عليها وتأثيرهم في المجتمع المصري.

كذلك حصلت فئة كبار التجار بالإسكندرية على نفس المكانة الاجتماعية المتمايزة وعن طريق هذه المكانة استطاعت أن تلعب دورها في التأثير الاجتماعي على بنية المجتمع المصري الاجتماعية ، نتيجة لاتساع دائرة علاقاتها الاجتماعية التي اشتملت كل الفئات من فئة الأمراء ورجال الإدارة إلى الفئة الفقيرة المعدمة ومد يد الإحسان لها حتى حظيت بتقدير الجميع .

4 – العلماء وطلبة العلم :

كان العلماء وطلبة العلم الجزائريين الذين أتوا للدراسة والتدريس بالأزهر والمدارس المصرية أحد القنوات المؤثرة في المجتمع المصري خلال العصر العثماني المتأثرة به ن فقد حاز العلماء منهم على مكانة علمية عالية جعلتهم قبلة فئات لمجتمع يؤمونهم ليفتونهم في مسائل دينهم وأحوالهم الشخصية ، ولينتفعوا بعلمهم ويأخذوا عنهم ، وأصبح لهؤلاء العلماء روادهم وطلابهم من المصريين الذين لا شك أنهم تأثروا بهم ونقلوا هذا التأثير إلى محيط أسرهم ، وقد تولى العلماء الجزائريين بعضا من المناصب المؤثرة منها نيابة القضاء وغيرها مما جعل أثرهم يبرز في محيط المجتمع المصري في القاهرة والإسكندرية وغيرها ، وكذلك كان تأثير الفقيه الجزائري وكاتب التمائم في مجتمع الريف المصري ، لا يقل حجما عما عليه حجم تأثير العلماء في مجتمع المدينة ، هذا فضلا عن العلماء الذين تولوا مشيخة رواق المغاربة ونظارة أوقافه وجمع ريعها أصبحوا أكثر احتكاكا بفئات الشعب التي كانت تنتفع بهذه الأوقاف ، وكان لهم أثرهم على هؤلاء المنتفعين ، ولم يجعل من هؤلاء العلماء من أنفسهم طبقة متميزة عن الشعب بل شاركوه همومه ومشاكله التي كان يعيشها واندمجوا معه على السراء والضراء ، فزاد تأثيرهم قوة بل أن هناك من العلماء الجزائريين الذين اتخذوا من مصر وطنا لهم عاشوا عيشة المجتمع المصري بكل مقوماته .

أما طلبة العلم فقد كان اختلاطهم بأساتذتهم وبزملائهم من المصريين له آثاره البعيدة عليهم فقد تأثروا بالعادات والتقاليد المصرية وأثروا فيها ، وخاصة أن بعض هؤلاء الطلاب طالت مدة اقامتهم بمصر ، ولم تعد اقامتهم قاصرة على طلب العلم ، بل اشتغلوا ببعض الحرف التي تدر عليهم بعض الربح كما رأينا ، هذا فضلا عن تكوينهم أسر داخل هذا المجتمع وزواج كثير منهم من مصريات ، مما جعلهم يتعبون بالحياة الاجتماعية المصرية بأوسع معانيها . وأصبح الكثير منهم يحترف القراءة على القبور وفي المساحد نظير أجر معين ، كما تولى بعضهم وظائف النظر على مثل هذه الأمور مما جعلهم أكثر ارتباطا بطوائف المجتمع المصري.

5 – المغاربة والحامية العثمانية :

كان لاوجاقات العثمانية منذ بداية العصر العثماني امتيازاتها المادية والأدبية الكبيرة في المجتمع المصري في المدينة والريف على السواء ، ومنذ القرن 17م بدأ الانتماء الى هذه الاوجاقات من بعض طوائف المجتمع المصري للتمتع بامتيازات هذه الأوجاقات ، وقد شاعت هذه العملية حينما بدأت عملية بيع تذاكر العلوفات تصبح شيئا معترفا به من قبل الادارة ، وقد استغلت فئة التجار هذه الفرصة وبدأت تشتري هذه

التذاكر وتنسب نفسها إلى أوجاقات الحامية المختلفة ، كذلك استغل العربان الجزائريين في الريف فرصة الانتماء الى الحامية فادعواالانتماء الى بعض أوجاقاتها للتمتع بامتيازاتها على السكان .

6 – التأثير الاجتماعي عن طريف علاقات الانتاج :

رأينا كيف أن فئة كبيرة من التجار من التجار الجزائريين ومن المشتغلين بالحرف الصناعية ، استثمروا فائض رؤوس أموالهم في التزام الأراضي الزراعية ، وامتلاك العقارات وتشغيل بعض المصريين لانتاج بعض السلع لحسابهم الخاص ، وقيام علاقات انتاجية واسعة بين قطاعات كبيرة من الشعب المصري ، ومايدل على تأثير المغاربة القوي على المجتمع المصري أن كثيرا من أحياء وشوارع وحارات ودروب وأسواق ووكائل المدن الكبرى وبخاصة القاهرةوالاسكندرية ومدن الثغور الأخرى أصبحت تحمل اسم المغربي ، المغاربة .. وقد قدرت الادارة دور هذه الجالية في المجتمع المصري ، فلم تعد تصدر أمرا يخص حياة هذا المجتمع ومصيره الا بحضور أعيان المغاربة .

الجزائريون والحياة الاجتماعية في الريف المصري :

نقصد بهذا الدور ، دور العربان المغاربة (بني وافى ، أبو كرايم ، محارب...) على الحياة الاجتماعية في الريف المصري ، وقد كان العربان يتجولون في ربوع مصر شمالها وجنوبها ، وقد تميز دور هؤلاء العربان على الحياة الاجتماعية في الريف المصري في معظم جوانبه بالسلبية ، وكانت شاملة للعربان المتجولين وومعظم العربان المستقرين ، فقد جعل هؤلاء العربان من أنفسهم طبقة متميزة على أبناء البلاد من الفلاحين وتعالوا عليهم ، أما العربان المتجولون والذين كان يطلق عليهم عرب الخيش فقد أصبحوا مصدر رعب وارهاب للفلاحين ، ونهبوا وسلبوا مزروعاتهم وحيواناتهم ورغم ذلك كان الفلاحون يحترمونهم كسادة لهم .

ومع تمتع هؤلاء العربان بكل هذه الامتيازات التي فرضوها على الفلاحين ، فانهم لم يكونوا يشاركونهم لا في تطهير الترع ولا في اقامة الجسور ، أو غير ذلك من المشروعات العامة التي تسهل على الفلاحين عملهم ، اعتقادا منهم أنهم يقدمون للفلاحين حمايتهم نظير ما يقدمونه لهم من هبات وخدمات ، مع أن هذه الحماية في غالب الأحيان ضارة بالفلاحين. لكن دور العربان الذين احترفوا الزراعة كان ايجابيا في المناطق التي استقروا فيها ، حيث عمّ قرى هذه المناطق الأمن والاستقرار والرخاء الاقتصادي مثل منطقة مصر العليا التي عمها الرخاء بسبب تواجد عربان الهوارة .

.....

المحاضرة الثامنة

العلاقات الاقتصادية الجزائرية المشرقية

ملاحظة : أتناول في هذه المحاضرة العلاقات الاقتصادية بين الجزائر ومصر ، ولتنبيه كلمة مغربي تعني الجالية المغاربية بصفة عامة .

قدر لأبناء الجالية الجزائرية الذين استقروا في المدن المصرية قبل العصر العثماني أو الذين وفدوا إليها خلال هذا العصر ، أن يكون لهم دور المشاركة الفعالة في أوجه النشاط الاقتصادي المصري طوال العصر العثماني ، سواء أكانت نشاطات تجارية داخلية أو خارجية ، أم كانت نشاطات صناعية وحرفية أو استثمارية ، وقد كان دور أبناء الجالية الجزائرية في هذا المضمار دورا ايجابيا ومؤثرا .

1- الوكالات والأسواق كمنظمات تجارية مغربية : تم إحصاء 123 وكالة تجارية ومهنية كانت قائمة في القاهرة خلال الفترة العثمانية ، واتضح أنه لا تكاد تخلو وكالة في القاهرة والإسكندرية من وجود طائفة من التجار المغاربة وأصحاب المهن الصناعية ، بل إن كثيرا من هذه الوكالات سيطر عليها المغاربة سيطرة كاملة ، مثل وكالة الزيت ببولاق فقد كانت بمثابة منظمة لتصنيع الزيت وتجارته ، كذلك مثّلت وكالة الماوردي منظمة تجارية مغربية ضخمة للمتاجرة في مختلف أنواع السلع ، وأيضا وكالة الجراكسة التي كانت متخصصة في تجارة البن ، ووكالة الكعكيين التي اشتهرت ببيع الدهانات ، ووكالة السكر ببولاق ووكالة المرجان بالقاهرة ، ووكالة المغاربة بخط طولون ووكالة فتح الله الناضوري بالإسكندرية ، وفي وكالات الإسكندرية الأخرى التي أصبحت تمثل منظمات مغربية تجارية وكالة سنان باشا ووكالة الحدادين وغيرها .

أما عن الشكل الثاني من أشكال المنظمات التجارية المغربية في داخل المدن المصرية فقد تمثل في الأسواق مثل سوق طولون وكان التجار المغاربة يمارسون في هذا السوق مختلف أنواع التجارة ، وكان نفوذهم قويا في أسواق الجملون وسوق الشرب بخط الغورية ، واشتهروا بتجارة الأقمشة الهندية المستوردة عن طرق وكلائهم في البحر الأحمر يقومون بتوزيعها داخل أسواق مصر ، ويصرفون جزء منه إلى بلدان المغرب العربي وأوروبا ، ومن الأسواق الأخرى التي كان المغاربة لهم فيها السيطرة سوق السلاح وسوق الحمزاوي وسوق الصاغة وسوق باب الشعرية وسوق مصر القديمة . وكذلك كان الوضع بالنسبة لأسواق الإسكندرية حيث يعرف أشهر أسواقها باسم سوق المغاربة وكذلك أسواق المنصورة ورشيد ودمياط .

2- السلع التجارية :

يمكن ملاحظة أن هذه السلع كانت تشمل : سلع مغربية أو منتجات مغربية جلبت من بلدان المغرب العربي ، لتباع في مصر أو تصدر الى بلدان المشرق العربي الأخرى . سلع شرقية عربية شامية أو حجازية أو يمنية أو عراقية لتباع في مصر أو تصدر إلى أوروبا أو بلدان المغرب العربي ، سلع هندية أو أفريقية لتباع في مصر أو تصدر الى أوروبا أو الى البلدان العربية الأخرى ، وأهم السلع التي ترد في القائمة هي :

الأقمشة الحريرية ، الأقمشة الهندية ، الأقمشة الصوفية ، الشيلان المغربية ، الفوط ، المحارم ، الأحزمة ، الأحرمة ، العطور ، الزيوت ، الزيتون ، الصابون ، الايات الرومي ، الملابس القطنية ، البخور ، الأحجار الكريمة ، الحلي ، المرجان ، البن السكر ، الجلود ، الحبوب ، النحاس المصنوع ، الحديد ، الأسلحة ، الطرابيش .وقد كان لهذه السلع أهمية بالغة في حياة المجتمع المصري آنذاك ، حيث نجد عند استعراضنا لهذه السلع أنها كلها استهلاكية ، لا يستطيع أي مجتمع الاستغناء عنها فكلها من الضروريات وليست من الكماليات ، ولذا فإنها عادت بالربح الوفير على المشتغلين بالمتاجرة فيها.

وقد اتسع نشاط التجار المغاربة وبخاصة تجار الأقمشة وتجار البن وأصبحوا يقومون بعمليات الاستيراد والتصدير بين موانئ مصر وبلاد الحجاز واليمن والموانئ الهندية من جانب ، وبين موانئ مصر على البحر المتوسط والموانئ المغربية والأوروبية والشامية ، وأصبح لهؤلاء التجار وكلاء مقيمين في هذه الموانئ لتصريف أمورهم نيابة عنهم ، وبذلك اتسعت دائرة نشاطهم التجاري ، ولم تعد قصرا على النطاق المحلي بل شملت النطاق الخارجي مما مكنهم من جمع ثروات ضخمة .

3 – الاستثمارات :

كانت المجالات التي اتجه التجار الى استثمار فائض رأسمالهم فيها : مجال التزام الأراضي الزراعية ، اسقاطا ، ورهنا ، ومجال شراء العقارات سواء أكانت معدة للسكن أم كمحال تجارية ووكائل وخانات .

لجأ الأمراء المماليك الى كبار التجار ليقترضوا منهم الأموال بضمان التزاماتهم الزراعية ، فكانوا يقومون باسقاط هذه الالتزامات للتجار نظير الأموال المقترضة ، وحتى تظل الالتزامات بأيديهم يقومون في نفس الوقت باستئجارها منهم مرة ثانية ، وتصبح قيمة الايجار بمثابة الربح الذي تدره الأموال المقترضة باسم اسقاط الالتزامات ، ولذا فإن معظم التجار أصبحت بأيديهم التزامات عديدة وفي مناطق مختلفة ، دون أن يذهبوا الى مواقع الالتزامات أويرونها ، وهي واردة في سجلات الرزنامة الرسمية ومزاد الديوان العالي .

أما المجال الثاني الذي ولجه التجار لاستثمار الفائض من رأسمالهم التجاري فهو مجال امتلاك العقارات بمختلف أنواعها في القاهرة والمدن المصرية الأخرى ، فاشتروا الدور والخانات والوكائل والحمامات والدكاكين والمخازن والحواصل ، لاستعمال بعضها الاستعمال الخاص ، وتأجير البعض الآخر نظير إيجار سنوي أو شهري حسب العقد الذي يتم بين الطرفين المؤجر و المستأجر، ومن المفيد أن هؤلاء المالكين قاموا بوقف الكثير من هذه العقارات اما على أنفسهم حال حياتهم ، ثم على ذريتهم من بعدهم أو على أوجه البر وطلبة العلم أو رواق المغاربة أو قراءة القرآن الكريم أو على فقراء المسلمين والحرمين الشريفين .

المغاربة والأنشطة الصناعية والحرفية :

استطاع أبناء الجالية المغربية منذ مطلع العصر العثماني في مصر أن يلجوا أبواب معظم الحرف المهنية والصناعية التي كانت سائدة في مصر آنذاك ، وفي مختلف المدن المصرية بل أنهم نقلوا إلى مصر حرفا جديدة واحتكروا الاشتغال بها واستطاعوا عن طريق احتكارهم لهذه الحرف أن يكونوا رأسمال ضخم .

الحرف الصناعية وراتباطها بالتجارة : وتمثلت في عصر الزيوت ، صناعة الصابون ، غزل وصناعة الأقمشة ، صناعة الأحرمة ، صناعة الشيلان المغربية ، صناعة العطور ، صناعة السكر، صناعة القفاص ، صناعة الحصر ، صناعة الأدوات الحديدية ، دباغة الجلود ، صناعة الأدوات الخشبية ، النجارة ، صباغة الملابس ، صناعة المجوهرات والأحجار الكريمة ، صناعة السروج ، صناعة القزازة ، صناعة المخلل ، صناعة الملابس الصوفية والقطنية البلدي منها والرومي وحياكتها ، وصناعة المنسوجات الكتانية بأنواعها والسجاد.

تلك هي أهم الصناعات التي اشتغل بها المغاربة في القاهرة والإسكندرية والمدن المصرية الأخرى . وقد كان المغاربة المتخصصون في هذه الصناعات يتدرجون في مراتب هذه المهن الطائفية طبقا لنظام الطوائف من صبي في الصنعة إلى استا إلى المعلم ، حتى وصل الكثير منهم إلى مشيخة الطائفة سواء في الحي أو في

المدينة . وكان لأبناء المهنة الواحدة من المغاربة شيخهم ونقيبهم ووكيل لهذا الشيخ الذي يشرف على اشتغالهم بهذه المهنة ، ويحصل الضريبة المفروضة على الطائفة ، ويفض المنازعات التي تحدث بين أفرادها ملتزما بقواعد المهنة . لقد استطاع أصحاب ورش انتاج السلع المختلفة تكوين ثروات ضخمة نتيجة للأربح التي درتها عليهم عملية انتاج هذه السلع وأسلوب تسويقها وبدأوا يستثمرون فائض رأسمالهم هذا في نفس المجالات التي استثمر كبار التجار فائض رؤوس أموالهم زراعة وعقارات وغيرها .

الحرف غير الصناعية وحرف الخدمات: وتتمثل في الدلالة ، الطحانة ، القصابة ، البياضة ، الصرافة ، القبانة ، التراسة ، الدولبة في المقاهي ، البوابة ، العتالة ، النظارة بالحمامات ، الحلاقة ، الغربلة ، الحياكة ، اللبانة ، الشواية ، الحلوانية ، النحاتين ، النشارين ، والسمسرة ، معداوية الميناء . وأصبحت هذه الحرف شبه وراثية طبقا للنظام السائد وكانت إدارة هؤلاء الحرفيين إدارة شبه ذاتية ، وعموما فإن المشتغلين بهذه الحرف كانت دخولهم منها تكفي معاشهم وأسرهم ولم يكوّنوا منها ثروة كبيرة ، وكان معظمهم لا يملك عقارات خاصة بهم .

أهم المراجع :

- أحمد بوسعيد : ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني (1518 -1830م) دراسة تاريخية واجتماعية من خلال الرحلات الحجازية. نسخة الكترونية

- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ج1 ج2 . نسخة الكترونية

- عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم : المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517- 1798). نسخة الكترونية